



صدر الكتاب أخيراً عن دار المتوسط بميلانو، ننشر هنا قسماً من المقدمة وبعضاً من نصوصه

«تدور عينُ ريتسوس، ذات الأوجه المتعدّدة، في زاوية من 360 درجة، فتتعلق على نفسها تدريجيّاً، لتلتقط تفصيلاً تلو آخر، ثم ترتدُّ إلى نفسها، فتنتفح على اتّساع محجرها، كاشفةً عن تصميم لا بُدَّ أنّها قد أبصرته من علوّ شاهق، ليكون مفسّراً على نحو بالغ الوضوح. إنّ تغلغلها المجهرّي يفنّت التفاصيل في تفاصيل أخرى، وهذا حقيقيّ، بالنسبة إلى التمييز السيكولوجيّ، مثلما هو، كذلك، بالنسبة إلى التمييز الماديّ، أيضاً. وليست رؤيته، على أية حال، هي تلك التي لعالم -مثلما قد يشي بذلك تصويري لها- بل إنها لواحد يعشق جيّداً التنوّع المطلق للحياة في كل تجلّياتها، فلا تفصيل ينبغي أن يظلّ غير مرصود، أو غير محتفّى به البتّة، بل يتوجّب مقارنته بتجويل ورهبة وحُبّ، ثم ملاطفته وضّمّه، والانشداه منه والذهول، كذلك، أيضاً. إنّ الأشياء في ذواتها، في كينونتها ليس إلّا، معجزة وجديرة بحبّ الإنسان. لذلك، نرى كيف تنبض أبياته بدفء جُؤانيّ وبرّانيّ، وكيف تتقدّ بالحسيّة. كالمرايا، تعكس الأبيات مصدر الضوء والحبّ المتأصل في عينيّ الشاعر وفي رؤيته. آنذ، ندرك، كدهشة عظيمة، كهزّة أو تكاد، بأنّ قصائد الحبّ، أو القصائد الإبروتيكّيّة، في حدّ ذاتها، غير موجودة، على نحو عمليّ، في آثار ريتسوس الضخمة.

في الواقع، وحسب ما أعرف، فإنّه لم يكتب سوى ثلاث قصائد من هذا النوع. إنّها تشمل العمل الحاليّ، حيث تبلغ قصيدته السابقتان ذروتيهما. يذكّرنا عنوان القصيدة الأولى، «نشيد إلى إروتاس Erotas» -والتي كتبت في 1934، عندما كان الشاعر في الخامسة والعشرين، ونشرت في كتابه الثّاني، أهرامات (1935)- بتمييز جرى عبر اليونانيّة القديمة إلى الحديثة، والذي يبدو أنّ اللّسان الأنغلو-أميركيّ لم يكن في حاجة إليه البتّة. ف erotas و aghapi تستخدمان، في اليونانيّة، بما يربطه الأنغلو-أميركيّون من عواطف وغراميّات بكلمة «حُبّ love»؛ وعلى الرّغم من أنّ erotas، في اليونانيّة، تحمل تلميحات/تضمينات حسيّة أكثر من aghapi، فإنّها غير مقصورة تماماً، كما في الإنجليزيّة، على الجانب الجنسيّ للحُبّ. إنّ «قصيدة غنائيّة إلى إروتاس» تمرينٌ أدبيّ في رباعيّات إياميّة مقفّاة تستحضر المفهوم المجرّد للحبّ الحسيّ (غير الجنسيّ) كما تمّ إنشاده على نحو أديّ في السّرائر الرومانتيكيّة للشعراء. فعدم الإشارة إلى حادثة معيّنة، وعدم مناجاة جسد معشوق أو حبيبة، هما الاستحضار الأمثل لعاطفة بلا تجسيد.

ولا يعني ذلك القول إنّ القصيدة لا تستلهم أيّة تجربة بعينها. هنا، كان ريتسوس يؤدّي الدور التقليديّ للشاعر في



التفكير المثاليّ وفي التجريد، وفي إضفاء بُعْدٍ كونيّ أيضاً. فبعد بضع سنين، على أيّة حال، في 1937-38، كتب قصيدة طويلة في سبعة وثلاثين جزءاً، بعنوان «سيمفونيّة الرّبيع»، حيث نستطيع، عبر موتيفاتها الموسيقية وتفصيلها الغنائيّة، رؤيةً حادّة محدّدة عن عشّاق أحبّوا بعضهم حسياً، ثمّ افترقوا محزونين. يتكلّم الشاعر عن عزلته اللّانهائية فوق قمّة ثلجية (كان ريتسوس، في ذلك الوقت، قد أدخل، لقضاء سنتين اثنتين، للعلاج من مرض السلّ، في مصحّة على جبل بارنيثا قرب أثينا)، وعن قدره المأساويّ الكئيب (فقد ماتت أمّه وأخوه بداء السلّ)، وعن العالم الفئّاك في الخارج (كانت ديكتاتوريّة ميتاكساس في أوج استبدادها). تأتي المحبوبة إليه في الصّوّ والأمل، وحبّهما «يملأ الصّدع اللّانهائيّ/ بأجنحةٍ وأزهارٍ». إنها تجلب له المسرّة والحبّ في غرفة يجعلانها كونهما، فيحتفي بجسدها العاري الذي من خلاله ينهمك في وحدة الكون. يعقب ربيع الحبّ صيفُ الوفاء والتحقّق، ثمّ، وعلى نحو حتميّ، خريفُ القمر الأصفر لشهر نوفمبر، حين تسقط أوراق الأشجار والموت «يختبئ تحت سريرنا/ ويصنع مزامير من عظام/ سنونوات ميّنة». بأمل متجدّد، يدرك الشّاعر بأنّ حبّه لها ليس سوى حبّ رمزيّ يدلّ على حبّه للخلق والإبداع، وبأنّ «خلف حديقتنا حدائقُ أخرى»، وأنّه لا يفترق عنها إلا لينجز قدره الحتميّ كشاعر، متحرّراً من كلّ القيود.

من “مقدّمة” كيمون فريار

مقتطفات من الكتاب

أسفل السرير

نعلاها

يحفظان شكل قدميها

دفعاً قدميها



إِثْمَا تَنْفَّسَانِ

وِطَائِرَانِ أَيْضَانِ

بِعْيُونِ سَوْدَاءَ فَاحِمَةٍ

وِطَوْقُ مَنْ التَّيْكَلِ

حَوْلَ عُنُقَيْهِمَا.

\*\*\*

الْعَيْنَانِ جَائِعَتَانِ

الْأُذْنَانِ جَائِعَتَانِ وَالْمَنْحَرَانِ

الْفَمُ اللِّسَانُ

جَائِعٌ هُوَ الْجَسَدُ

يَشْمُ يَنْصُتُ يَتَلَمَّسُ طَرِيقَهُ

عَلَى الرِّكْبَتَيْنِ الثِّيَابِ الْجِيُوبِ

الشُّكْلِ الْجَسَدِ الْآخِرِ

الرَّمُوشِ وَاحِدًا وَاحِدًا

فِي اللَّيْلِ تَمَائِلُ تَرْكُضُ



رجالٌ براياتٍ

أعمدُهُ مصابيحُ

الجسدُ الصَّابِيُّ يتلمَّسُ طريقَهُ

في ملتقى إيماءةٍ واحدةٍ

يتلمَّسُ طريقَهُ أبعدَ منَ الموتِ

داخلَ الموتِ

ينصتُ إلى قَطْرِ البالوعةِ

في الحمامِ المرمرِ

بالمناشفِ الكبيرةِ الحمراءِ

منقوعةً بالماءِ.

\*\*\*

كيفَ يكْبُرُ

في الليلِ

هذا الجسدُ

القدمانِ



تنتان من السرير

تنتان من التافذة

نجمه تُولّد

مفتاح يضيّع

ينغلق الباب

خارجاً أطلّ

يدُ التمثال تسقط

على رُكبتيّ.

\*\*\*

كم أنت جميلة، إنّ جمالك يُفزعني. أجوعك. أطمؤك.  
أناشدك، احتجبي؛ احتجبي على الكلّ، ولا تتجليّ إلا لي أنا وحدي. مُعطاةً  
من رأسك حتى أحمصي قدميك بحجابٍ مُعتمٍ شفافٍ  
مُرَقَّطاً بتنهيداتٍ فضيئةٍ من أقمار الربيع. مسامك تبعثُ  
حروفَ عليّ، حروفاً صحيحةً مُشثاقّةً؛ لقد لُفِطتُ كلماتٍ سرّيةً،  
انفجاراتٍ ورديةٍ من مطارحةٍ الغرام. حجابك يعلو، يلمعُ  
فوق المدينة التي أدركها الليلُ بحاناتها التي تنوسُ فيها الأضواء، فوق أماكن البحارة المألوفة؛  
كشافاتٍ خضراءٍ تُنبئُ الصّيدليات الليلية، وكرة زجاجٍ  
دوّمٍ مُسرعةً فتكشفُ المنظر الطبيعيّ لكرة الأرض. السكّير يترنّجُ



في عاصفة هبت من أنفاس جسدك. لا تذهبي. لا تذهبي.

واضحة جداً. ومراوغة جداً. ثور جري

يثب من القوصرة إلى العشب النّاشف. امرأة عارية تصعد السلالم الخشبية  
حاملة طست ماء ساخن. والبخار يحجب وجهها. عالياً في الهواء  
مروحية استطلاع تسف مواضع عشوائية. احترسي.  
إنهم يطلبونك. اختبي عميقاً أكثر في يدي. قرؤ

البطانية الحمراء التي تغطينا يكبر ويكبر،

فتصير البطانية الحمراء دبة حلى. تحت الدبة الحمراء

نتطرح الغرام إلى الأبد، أبعده من الزمن وحتى أبعده من الموت،

في اتحاد كوني متوحد. كم أنت جميلة. إن جمالك يفرعني.

وأجوئك. وأظمؤك. وأناشدك: احتجبي.

\*\*\*

كل الأجساد التي لمستها، التي رأيتها، التي نلتها، التي حلمت بها— كلها—

تكاثفت في جسدك. آه يا ديوتيمّا الشهوانية

في سيمبوزيم الإغريق العظيم. لقد رحل غازو المزامير،

رحل الشعراء والفلاسفة. والشباب الوسيمون للتو قد ناموا

بعيداً في غرف نوم القمر. وحيدة أنت

في ابتهالي الصاعد. صندل أبيض



بسيورٍ بيضاءٍ طويلةٍ مربوطٍ برجلِ الكرسيِّ. أنتِ نسيانٌ مُطلَقٌ.

ذاكرةٌ مُطلَقةٌ أنتِ. وأنتِ رِقَّةٌ لا تنكسرُ. إنَّ النهارَ ينبلُجُ.

إِجاصاتٌ شوكةٌ مُكتنزةٌ تَشطُّأُ مِنَ الصَّخْرِ. شمسٌ ورديةٌ

تستلقي ساكنةً فوقَ بحرٍ مُؤنُوقاسبًا. ظلُّنا الشَّائِيُّ

بَدَدَهُ الصَّوؤُ على أرضيةِ الرَّخامِ بسجائرها الكثيرةِ المُداسَةِ،

بأزهارِ ياسمينها الصَّغيرةِ المُعلَّقةِ على إِبْرِ الصَّنوبرِ. آه يا دُبُوتَيْمَا الشَّهوانِيَّةِ،

يا مَنْ وَلَدَتِنِي ويا مَنْ وَلَدْتُكِ، آه أَنْ تَلِدَ الأَدوارَ والقِصائدَ، أَنْ نمضي في العالمِ.

ولا تَنسِي، في الواقعِ، حينَ تذهبنَ إلى السُّوقِ، أَنْ تشتري كومةً تَقَّاحٍ،

ليسَ ذهبيَّ الحوربَاتِ، بَلِ الأَحمرِ الكَبيرِ، ذاكَ أَتُكِّ حينَ تقضمينَ

لُبِّها القاسيَ بأَسنانكِ اللامعةِ، تطلُّ ابتسامتُكِ الحيويَّةُ

عالقَةً كأبديةٍ فوقَ الكُتُبِ.

\*\*\*

الكاتب: تحسين الخطيب